* إنتشار الإسلام وحجه الوداع *

عَادَ النبيُ ﷺ والمسلمون بعد صُلْح الحُديبية إلي المدينة راضين آمنين ، وبعد أيام رأي النبي أن يُؤَمِّنَ المدينة من مَكْر اليهود وغَدْرهم ، وذلك بأن يذهب إلي حُصون اليهود في خيبر ، ويعرض عليهم توقيع معاهدة سلْم مع المسلمين ، فإن قَبِلوا كان ذلك خيراً ، وإلاَّ فالحرب والطَّرد . . وتجهَّز جيش المسلمين وخرج في ألف وستمائة مُقاتل معهم بعض النسوة لإسعاف الجرحي وسَقْي الجنود ، وأسرعَ الجيشُ في اختراق الصحراء حتي يُباغتَ اليهود في ديارهم .

ووصلَ المسلمونَ إلي خَيْبَر في هَدْأة الليل ، واستراح الجيشُ حتي يَطلُع الصباحُ . وفي اليوم التالي انتظر النبي أن يرسل اليهودُ وفداً للتفاوض ، ولكن لم يُرسل اليهودُ وفداً للإتفاق مع المسلمين علي معاهدة سِلْم .

لم يُفكر اليهودُ في سِلْمٍ ، بل تهيَّأوا للحرب ، فوضعوا نساءهم وأولادهم في أحد الحصون ، وتجمعوا في حِصْن أخر ، وراحوا

يرمون المسلمين بالسِّهام والنبال، فأصاب سهمٌ أحدٌ المسلمين فخرَّ قَتيلاً ، فابتعد المسلمون عن الحِصْن ، ورأي اليهود ذلك فابتهجوا، ورأو أنهم أشدُّ بأساً من المسلمين . فخرجوا من حصونهم واشتبكوا معهم ، ودارتْ معركةٌ حاميةٌ ، قُتِل فيها قائد اليهود فذُعِرَ اليهودُ وفرُّوا إلي حصُونهم .

وصَمَدَ جيشُ المسلمين ، وظلَّ يُحاصر الحصنَ سبعةَ أيامٍ دون أن يفتحوا ذلك الحصن . وأعدَّ النبي خُطةً للهجوم بقيادة علي بن أبي طالب ، وعندما اقترب عليٌّ من باب الحصن خرج إليه اليهودُ، والتقي علي بن أبي طالب بقائد جيش اليهود ، ودارتْ بينهما مبارزةٌ . . كان كلاهما ماهراً ومُراوغاً ، واستطاع عليّ أن يعاجله بضربة بسيفه أطاحتْ برأسه ، فلما رأي اليهود مَصْرعَ قائدهم ولُّوا مدبرين ، وتشتتوا فَزَعاً وهَلَعاً . وأخيراً طلب اليهودُ الصُلح والصَفْح ، فوافق النبي ﷺ علي طلبهم وأمرهم بمغادرة البلاد لأنهم لا أمان لهم .

فأرسلوا أحَدهم يرجو النبي أن يسمحَ لهم بالبقاء في البلاد يزرعون الأرضَ ويَرعُون الغنم ولايتعرضون للمسلمين بالأذي ، فوافق النبيُ وتركهم في مكانهم صَاغِرين .

عاش المسلمون بعد فتح حصون خيبر في أمانٍ وسلامٍ . وحان موعد ذهاب المسلمين لزيارة الكعبة ، فأمر النبي ﷺ المسلمين بالإستعداد للرحيل إلي مكة . ودخل النبي والمسلمون مكة ، وطافوا بالكعبة وهم يُرددون الدعوات والتكبير ، وحضرتْ الصلاةُ ، فأمر النبي بلالاً بأن يصعد فوق ظهر الكعبة ويؤذن للصلاة .

وترددتْ في الأرجاء كلماتُ الأذان . . الله أكبر الله أكبر . . أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله . . حَيَّ علي الصلاة . حي علي الفلاح . . الله أكبر الله أكبر . . لا إله إلا الله .

واصطَفَّ المسلمون في الصلاة خلف النبي ، ثم جلسوا بعدها في خشوع يستمعون إلي كلام رسول الله وتوجيهاته . بينما وقف المشركون يفركون أعينهم وينظرون في دهشة وإعجاب إلي هذا النظام والاحترام والعزَّة .

ومرت ثلاثةُ أيام والمسلمون يؤدون مناسكهم في هُدوء ، ويُعاملون أهلَ مكةَ بأخلاقٍ سامية . ثم عاد مَوْكبُ المسلمين إلي المدينة .

ودخل أناسٌ كثيرين في الإسلام ، مثل عمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد ، وآخرين من عِلْية القوم وأشراف قريش .

واستقر الإسلام في المدينة المنورة ، ودخلت قبائلُ مجاورة في دين الله ، ونزل القرآن بآيات تُنظم للناس شُئون الحياة ، وكان النبي يبين لأصحابه تعاليم الدين ومفاهيم القرآن .

وأراد النبي نَشْر الإسلام في البلاد الأخري ، فأرسل رسائل إلي الملوك والحكام ، أرسل إلي ملك الروم وملك الفرس ، وإلي ملك الحبشة ، وإلي ملك مصر ، وأرسل إلي ملك الغساسنة في بلاد الشام . وإلي حاكم اليمن وحاكم البحرين ، وعمان وغيرها . . ولم يدخل في الإسلام إلا القليل .

وصل سفير النبي إلي ملك الغساسنة وكان رجلاً عربياً يناصر الروم حاملاً رسالة يدعوه فيها إلي الدخول في الإسلام ، ثم غاب مدة، ولم يعد . .

وعندما علم النبي ﷺ أنه قُتل خيانةً وغَدْراً غَضبَ غَضباً شديداً، وأمر بتجهيز جيش من ثلاثة ألاف مقاتل لتأديب هؤلاء الذين يناصرون الروم والذين ردوا علي رسالة النبي أسوأ رَدٍ .

وسار جيش المسلمين في طريق وَعْرٍ مسافة طويلة حتي وصل إلي الشام ، ونزل بمكان يسمي « مُؤْتة » ، وكان الروم قد جهزوا جيشاً هائلاً بلغ عدده أكثر من مائة ألف مقاتل .

والتقي الجيشان . . جيش المسلمين قليلُ العدد ، وجيش الغساسنة والروم الكبير الهائل والمتسلحُ تسليحاً شديداً ، وخاضَ قائد جيش المسلمين زيد بن حارثة المعركة بهجوم عنيف لايَهابُ الموت ، لكنه استُشْهد ، فتسلَّم القيادة بعده جَعفرُ بن أبي طالب وأخذ اللواء بيمينه ، فقُطعتْ ، فأخذه بشماله فقُطعتْ ، فاحتضنه بعضُديه حتي قُتل . فتسلَّمَ القيادةَ من بعده عبدُ الله بن رواحه وحمل الراية علي فرسه وراح يتقدمُ بفرسه وفي نفسه بعضُ التردد ، فأخذ ينشد (مخاطباً نفسه) :

أقسمتُ يانفسُ لتنزلنَّ لتنزلنَّ أو لُتكرهنَّه
إن أجْلَب الناسُ وشدَّوا الرَّنَّة مالي أراك تكرهين الجنة !

وحَمَلَ سيفهُ وتقدم نحو العدوِّ يُقاتل دُون خَوف أو تردُّد ، ولكن كان المسلمون يخوضون معركةً يائسةً مع هذا السيل الهادر من جيش الروم ، واستشهد أيضاً عبد الله بن رواحة .

واختار المسلمون من بعده خالد بن الوليد ليقود الجيش ، وكان خالدُ قائداً ماهراً ذكياً ، رأي حال المسلمين ، وأدرك قوة الأعداء ، فلمَّ شَمْل جنوده ، ونَاوشَ الأعداء بمناوشات بسيطة حتي ينتهي النهار . . وفي المساء وضع خالدُ خُطةً ذكيةً لإنسحاب جيش المسلمين

يجنبهم المزيد من الخسائر . . فوزَّع عدداً من جنوده في مؤخرة الجيش ليُحْدثوا جَلَبةً وضوضاءَ ، لكي يتوهَّمَ الأعداءُ بأن مَدَداً جاءهم من المدينة ، ثم غيَّر ترتيب الجيش ليظن الأعداء أن جيش المسلمين زاد عدده . ولم يُهاجم خالد الأعداء في اليوم التالي . . وتَقاعسَ الرومُ أيضاً عن مُهاجمة خالد ، وهكذا بدأ خالد يسحب جنوده في الليل إلي الصحراء

ونَجحتْ الخُطة وعاد خالد بن الوليد بجيش المسلمين سالماً إلي المدينة ، وخَلُصَ من مخالب الروم ، وأثني النبي علي شجاعة خالد ، وبراعة حيلته وحَزن النبي والمسلمون كثيراً علي شُهداء المعركة .

كان النبي ﷺ جالساً في المسجد ذات يوم مع أصحابه ، وجاءه عمرو بن سالم في وَفْد من خُزاعة وأخبره بأن قريشاً وقبيلة بني بكر اعتدوا علي قبيلة خزاعة ـ وهي القبيلة التي أسلمت وحالفت رسول الله ـ وطلب من رسول الله النصرة .

تغيَّر وجهُ رسول الله ، وغَضِبَ لنَقضِ قريشٍ للمعاهدة ، وقال لعمرو : ونُصِرتَ ياعمرو بن سالم !

ورأي النبي أن ماقامت به قريش من نقض العهد لاجزاء له إلا فتح مكة ، فأرسل النبي ﷺ إلي المسلمين في أنحاء البلاد ، وإلي القبائل النائية التي دَخلت في الإسلام بأن يعدوا أنفسهم للقتال ، وأن يكونوا علي أهبْة الإستعداد لتلبية النداء .

ونَدمتْ قُريش علي نقض العهد مع رسول الله ، وخافت من أن يصل هذا النبأ إلي رسول الله ، فأرسلت أبا سفيان إلي المدينة ليقابل رسول الله ويؤكد العهد معه .

وعندما دخل أبو سفيان علي ابنته « أم حبيبة » زوجة رسول الله سلَّم عليها ، ثم راح يجلس علي فراش رسول الله ، وبسرعة طَوتْه أم حبيبة عنه ، فغضب وقال : وَيْحك يابنية ، أرغبت بي عن هذا الفراش ، أم رغبت به عني ؟ فقالت : إنه فراش رسول الله ﷺ ، وأنت رجلٌ مُشْرك نَجسٌ ، ولا أحب أن تجلس عليه .

فقال أبو سفيان في غيظ : والله لقد أصابك يابنيه بعدي شَرٌّ .

وخرج أبو سفيان من عند ابنته غضبانَ أسفاً ، وسار في المدينة هائماً علي وَجْهه حتي أتي رسول الله وكلَّمه في العهد الذي بينه وبين قريش وإطالة مدته ، فلم يَرُدَّ عليه النبي .

فتركه وخرج حائراً حزيناً حتي لقي أبا بكر وكلَّمه أن يكلم رسول الله . فأبي، فتركه أبو سفيان ، وسار حائراً حتي التقي بعمر بن الخطاب وطلب منه أن يُكلِّم رسول الله . فأبي عُمر وأغلظَ له الردَّ .

وقال له عمر : أنا أشفعُ لكم إلي رسول الله ؟ ! فوالله لو لم أجد إلا الذَّر لجاهدتكم به .

وخرج أبو سفيان أكثر حيرةً وهَوانا ، ودَخلَ علي عليّ بن أبي طالب وعنده فاطمة زوجته ، وكان يرتاحُ إلي عليّ وقال له : ياعليّ ، إنك أمسُّ القوم بي رَحماً ، فاشفعْ لي عند رسول الله .

قال عليّ : لا يستطيعُ أحدٌ أن يردَّ محمداً عن أمر إذا هو عزم عليه .

فقال أبو سفيان وهو ضائقٌ مهمومٌ : وبماذا تنصحني أن أفعل ؟

قال علي : والله ماأعلم شيئاً يُغني عنك شيئاً . . قُمْ ياأبا سفيان والْحَقْ بأرضك .

وعاد أبو سفيان إلي مكة صَاغراً وانياً حزيناً .

وتجهَّزَ النبيُ والمسلمون للخروج ، وتجمَّعتْ جُموع المسلمين من كل مكان في المدينة، فأخبرهم النبي أنهم ذاهبون إلي مكة ، وأنه

ينبغي الإسْراعُ حتي يَبْغَتَ قُريشَ في بلادها قبل أن تعلم بخروجنا .

وراح النبيْ يدعو الله : « اللهم خُذ العيون عن قريش حتي نبغتها في بلادها » وبينما كان الجيشُ علي أُهْبة السَّيْر إذا برجل من المسلمين يكتب رسالةً إلي قريش يُخبرها بأمر رسول الله ، ويرسلها مع جارية لتوصلها إلي مكة في مُقَابل بعض المال .

فأعلم الله نبيَّهُ بذلك ، فأرسل النبي في أثَرها علي بن أبي طالب والزُبير بن العوام ، فانطلقا بفرسيهما حتي لَحِقا بها ، وأخذا الرسالةَ منها .

ومضي مَوْكبُ المسلمين في عشرة ألاف رجل يطوي الفَلاَة طيَّاً حتي وصل مكة وعَسكَر خارجها . في هذا الوقت كان العباس عمُّ النبي قد خرج من مكة بأهله وعياله ليُعلن إسلامه بين يدي رسول الله، فالتقي به النبي وأبقاه معه .

وفي المساء أشعلَ المسلمون النيرانَ ، وباتوا أمام خيامهم يُرددون آيات القرآن ، ويقيمون الصلاة ، وفي تلك الليلة خرج أبو سفيان ومعه رجال من قريش ليعرف الأخبار ، فالتقي بالعباس عم النبي وكان يركبُ دابةَ النبي . وراعَ أبو سفيان مارآه من كثرة النيران ، وكثرة الحُشود ، وسأل : ما هذه النيران ؟!

فقال له العباس : هذا رسول الله وجيشُ المسلمين يريدون دُخول مكة . . لقد خَانتْ قريش عَهْدَ رسول الله .

فقال أبو سفيان في حيرة وحَسْرة : وما الحيلة إذاً . . أخبرني ياعباسُ ماذا أفعل ؟ قال العباس : تعال معي إلي رسول الله فقد يعفو عنك .

فوافقه أبو سفيان وركب خَلْفَ العباسِ على دابة النبي ، ودخلا على رسول الله ، وطلبَ العباسُ من النبي أن يبقي أبو سفيان في رَحْله هذه الليلة . فوافق وفي الصباح دخل العباس علي رسول الله ، ومعه أبو سفيان ، فلما رآه النبي قال له :

ـ وَيْحَك ياأبا سفيان . . ألم يأنِ لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ، وأني رسول الله .

فقال أبو سفيان : بأبي أنت وأمي ، ماأحْلَمك وأكْرمك وأوْصلك ، أمَّا والله هذه فإن في النفس منها حتي الآن شيئاً . .

فقال العباس : ياأبا سفيان أعلن إسلامك قبْل أن تُضرب عنقك .

فشهدَ أبو سفيان أن لا إله إلا الله ، وأن محمد رسول الله .

فقال العباس : يارسول الله . . إن أبا سفيان رَجلٌ يحب الفخر فاجعل له شيئاً .

فقال النبي : نعم . من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن .

وفي الصباح تحركتْ جُيوش المسلمين حتي وصلوا إلي مداخل مكة ، وبقي أبو سفيان مع العباس عند أحد مداخل مكة حتي يمرَّ الجيشُ ، ومرَّتْ القبائلُ بسلاحها وعَتَادها ، وأبو سفيان ينظر في دهشة وذُهول إلي الكتائب المُحتشدة ويقول : والله ياأبا الفَضْل لقد أصبح مُلْكُ ابن أخيك الغَدَاة عظيماً .

فقال له العباس : إنها النُبوة ياأبا سفيان .

وراح أبو سفيان ينادي في مكة بأعلي صوته :

ـ « يامعشر قريش . . هذا محمدٌ قد جاءكم فيما لاقبَلَ لكم به ، فمن دَخَل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن . »

واختبأ الناسُ في ديارهم ، ودخلَ النبيُ مكةَ منتصراً دون قتال . . وسَجَد علي ظهر ناقته شُكراً لله .

وعندما دخل النبي الكعبة طاف بها سبعاً وهو يكبر ويحمد الله ، والجُموع تردد وراءه التكبير والحمد ، ويُردده الصَّدي . ثم وقف النبي

علي باب الكعبة يخاطب أهل مكة قائلاً : : يامعشر قريش . . ماتظنون أني فاعلٌ بكم ؟

قالوا : خيراً . . أخٌ كريم ، وابن أخٍ كريم .

فقال النبي لهم : يغفرُ الله لكم وهو أرحم الراحمين . . إذهبوا فأنتم الطُلَقاءُ ، وعفا عنهم جميعاً .

وأمر بتحطيم الأصنام التي كانت داخل الكعبة ، وعندما حانتْ الصلاةُ ، وقف بلال علي ظهر الكعبة يؤذن للصلاة : الله أكبر . . الله أكبر . .

انتشر الإسلامُ في مكة ، ودخل في دين الله نفرٌ كثير ، ولكن بقيتْ قبيلةُ هوزان علي كُفرها وعنادها ، وأخذت تُعدُّ نفسها لخوض معركة طاحنة للقضاء علي الإسلام ، واتحدت مع قبيلة ثقيف .

وبلغ النبي هذا الخبر فأعدَّ جيشاً من اثني عشر مقاتلاً من المسلمين ، بينهم ألفان ممن أسلموا عند فتح مكة ، وسار النبي بجيشه . وعندما وصل المسلمون إلي وادي حُنين باغتهم الأعداء في كمين ، فاضطرب جيشُ المسلمين ، وتشتَّتَ شَمْلُه ، وظنوا أن النبي قد قُتل . ولم يَدُمْ هذا الحال طويلاً ، فسرعان مانادي العباس : إن الرسول لم يُقْتل ،

وإنه يدعوكم للقتال .

وكان النبي يقاتل بسيفه الأعداء ويقول : أنا النبي لا كذب . . أنا ابن عبد المطلب ـ فتجمَّعَ المسلمون من جديد ، ووحَّدُوا صفوفهم ، وقاتلوا قتالاً عنيفاً ، ودارتْ معركةٌ حاميةٌ ، وانتصر المسلمون ، وفرَّتْ هُوازن من أمامهم ، ولحق بهم المسلمون عند سهل « أوطاس» ، فاستسلموا .

ثم سار جيشُ المسلمين إلي الطائف ، حيث هناك قبيلة ثقيف وبقيةٌ من الهاربين من هوازن ، واحتموا بسورها ، فحاصرها النبي والمسلمون ، وظلَّ القتالُ واستمر الحصار مُدةً حتي دَانتْ ثقيف وهوازن ، وأعلنتا إسلامهما .

وانتشَر الإسلامُ في أرجاء الجزيرة العربية .

عَلِمَ هرقلُ إمبراطور الرِوم أن الإسلام انتشر في جزيرة العرب ، فخاف أن يكتسحَ هذا الدينُ دولته ، فراح يُجَمِّع الجيوش لقتال المسلمين .

وبلغ النبي ذلك ، فرأي أن يخرج إليه بجيش كبير قوي ، ويقاتله في بلاده . وأدركَ النبيُ أن هذه الغزوة تحتاج إلي أموال كثيرة

وتجهيزات ضخمة ، وأسلحة وعَتاد .

فدعا النبي أغنياء المسلمين إلي الإنفاق لتجهيز جيشٍ قوي ، وأسرع المسلمون في الإنفاق والمساعدة ، كل يأتي بما يتيسر له، وكانت أيامها أيام عُسرة . وتجمعت حشود المسلمين من مكة والمدينة وقبائل العرب ، وسار النبي بجيش قوامه ثلاثين ألف مقاتل إلي الشام حتي وصلوا إلي تبوك ، فلم يجدوا فيها جيش الروم . .

وعَسْكَر المسلمون هناك وضربوا خيامَهم ، وباتوا يستريحون من طول السفر ووعْثَاء الطريق ، ويستعدون لخوض القتال مع جيش الأعداء

كان هرقلُ قد انسحبَ بجيشه إلي حمْص ـ داخل بلاده عندما علم بمجيء جيش المسلمين ، وراح ينتظر هجوم المسلمين .

وأقام النبي في تبوك عشرين ليلة أراح فيها الجيش الذي أنهكه طول السفر ، ولم يجرؤ خلالها جيش الروم علي الهجوم .

واستشار النبي ﷺ أصحابه في مواصلة السير إلي ديار الشام . . ثم رأي أن يعود بجيش المسلمين ظافراً منتصراً . . فما إنسحاب جيش الروم إلا هزيمةٌ له .

عاد الرسول ﷺ إلي المدينة يُنظم شئون الناس ويُعَيّن الوُلاة والقُضاة في المناطق البعيدة ، حتي يعيشَ المسلمون تحتَ ظلال القرآن ، ووفق تعاليم الإسلام العادلة .

وكان النبي يستقبل الوفود من البلاد الأخري التي كانت تُعلن اسلامها ، وتُعلن ولاءَها لرسول الله .

وهكذا صارتْ دولةُ الإسلام كبيرةً وقويةً يخافها الروم ، وتخشاها الفُرس ، وتعمل لها الدول الأخري ألف حساب .

وفي العام التاسع بعد الهجرة أمر النبُي ﷺ أبا بكر الصديق أن يحج بالناس ، وأمره أن يُبلغ الناس ألا يحج بعد العام مُشْركٌ ، وألا يطوف بالبيت عُريان .

وفي السنة العاشرة بعد الهجرة ، خرج الرسول ﷺ للحج ، وكانت هي حَجَّةُ الوداع . . ذهب النبي إلى « منَي » وبات فيها ، ثم توجه إلي عرفة ، وخطب فيها خُطبةً موجزةً بيَّن فيها أُصول الدين ، وأوصي فيها بالنساء وبالضعفاء خيراً ، وفي هذا اليوم نزل علي النبي قول الله تعالي : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾

وفي السنة الحادية عشرة بعد الهجرة، مرضَ رسول الله ﷺ ، واشتدت به الحُمَّي ، فلزمَ فراشهُ ، وكان لسانه رَطْباً بذكر الله وشُكره ، وكان يُوصي من حَوْله قائلاً ، الصلاةُ . الصلاةُ . الصلاة ، وما ملكتْ أيمانكم . وفي يوم الإثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول أغمض رسول الله عينيه ، وانتقلت رُوحه الطاهرة إلي بارئها ، بعد أن أدَّي الأمانةَ ، وبلَّغَ رسالةَ الله .

تمت بحمد الله تعالي